

قناة لوغوس بالولايات المتحدة الأمريكية

أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٦ م

الحلقتان ١٤، ١٥

## معمودية الأطفال

### تمهيد

لقد وضعت الكنيسة المعمودية الرّاشدين، شرط الإيمان أولاً لجواز معمديّتهم، ولم تُخل بهذا الشرط عينه، عند تعميد الأطفال المنتمين إلى الكنيسة على إيمان آبائهم، الذين سبق لهم أن أعلنوا إيمانهم، ويرغبون الآن ألا يُحرّم أولادهم من ثمة إيمانهم الذي سبق أن أعلنوه.

وربما تكون معمودية الأطفال بغير ذي معنى، إن كانت الكنيسة تعمد أيّ أطفال، ولكن إن كانت تفحص أولاً سلامة إيمان ذويهم، أو المسئولين عنهم، كشرط لتعميدهم، فلا غرابة في ذلك.

والمقابلة التي يذكرها القديس بولس الرسول مقارناً فيها بين الختان والمعمودية (كولوسي ٢: ١١، ١٢) لها مدلولها الواضح. فالمعروف أن الختان بدأ بإبراهيم وشمل كلّ الذكور «ابن ثمانية أيام يُختتن فيكم كلّ ذكر في أجيالكم» (تكوين ١٧: ١٢)، وأمّا عن المعمودية فيقول: «وبه أيضاً خُتنتم ختاناً غير مصنوع بيد، بخلع جسم خطايا البشريّة بختان المسيح ... مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢: ١١، ١٢).

فكما أن المعمودية هي ختم العهد الجديد، فالختان هو ختم العهد القديم (رومية ٤: ١١). ففي العهد الأوّل، كان الختان يُعطى لكلّ من يولد لإبراهيم، ليدخل في عهد الختان، على أساس أن الطفل الذي يُختتن سيفهم فيما بعد. وهنا معمودية الأطفال واضحة.

ولأن المعمودية مثل الختان من حيث كونها ختم مختاري الله ليصيروا أعضاء في شعبه، فهي تُمنح فقط لأولئك الذين تتحقّق الكنيسة من أنّهم يحملون فعلاً إحدى علامات اختيارهم. ففي معمودية البالغين تكون هذه العلامة هي اعترافهم بالإيمان، أمّا في معمودية الأطفال فهي عهدهم المقدّس من خلال والديهم، وفي هذه الحالة الأخيرة، فإن المعمودية مثل الختان، تسبق إدراك الإيمان وتقدّم عليه<sup>(١)</sup>. «لأنّ الرّجل غير المؤمن مقدّس في المرأة المؤمنة، والمرأة غير المؤمنة مقدّسة في الرّجل، وإلّا فأولادكم نجسون. وأمّا الآن فهم مقدّسون» (١ كورنثوس ٧: ١٤).

ثمّ أنّ الرّاشدين أنفسهم لم يكن يُطلب منهم سوى إعلان الإيمان قبل معمديّتهم كشرط لها، ولكنّهم لم يكونوا يدركون كلّ الإيمان أو يستوعبون أعماقه، وهو ما كان يستغرق منهم كلّ حياتهم بعد معمديّتهم. وهكذا الأمر بالنسبة للأطفال، فليس الفهم الكامل للإيمان هو شرط معمديّتهم، لأنّ الإيمان نفسه هو أيضاً ثمرة من ثمار المعمودية، لأنّ نمو الإنسان في معرفة المسيح والكنيسة، لا يكون إلّا بالروح القدس الذي نناله في سرّي المعمودية والميرون. فالروح القدس نعرف المسيح ربّاً ومخلصاً «وليس أحدٌ يقدر أن يقول يسوع ربّ إلّا بالروح القدس» (١ كورنثوس ١٢: ٣)، وبالمسيح نقرب إلى الآب «ليس أحدٌ يأتي إلى الآب إلّا بي» (يوحنا ١٤: ٦).

<sup>1</sup> Studia Liturgica, vol. 1, p. 41.

هذا التُّمو المتنامي دائماً، هو إيمان بالمسيح وفيه «ننمو في كلِّ شيء إلى ذاك الذي هو الرَّأس المسيح» (أفسس ٤: ١٥)، و«ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تدرِكوا ... وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كلِّ ملء الله» (أفسس ٣: ١٧-١٩). وهو ما يستغرق منَّا كلَّ الحياة.

وهو أيضاً إيماناً بالكنيسة ومن داخل الحياة فيها. إيمانٌ تغذيه الأسرار الكنسيَّة، التي هي نبعُ القوَّة فيها، ومضمون إيمانها ومحتواها.

وفي حين لم يرد في العهد الجديد تعليم واضح عن معمودية الأطفال، إلاَّ أنَّها كانت أمراً شائعاً تعرفه الكنيسة المسيحيَّة منذ أيام الرُّسل القديسين. ففي أكثر من مناسبة خاصة بالمعمودية، ذُكرت عبارة "أهل البيت"، مثل بيت كرنيليوس<sup>(٧)</sup>، وبيت ليديا<sup>(٨)</sup>، وبيت سجان فيلي<sup>(٩)</sup>، وبيت كريسيوس<sup>(١٠)</sup>، وبيت إسطفاناس<sup>(١١)</sup>. والاحتمال الغالب هو وجود الأطفال في بعض تلك البيوت، إن لم يكن في كلِّها.

ولقد كان الوعد بغفران الخطايا وقبول عطية الرُّوح القدس، هو للمؤمنين ومعهم أولادهم. فيقول بطرس الرسول: «توبوا وليعتمد كلُّ واحد منكم على اسم الرَّب يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الرُّوح القدس ... لأنَّ الوعد هو لكم ولأولادكم ولكلِّ الذين على بعد، كلٌّ من يدعوه الرَّبُّ إلهنا» (أعمال ٢: ٣٨، ٣٩).

ويتحدَّث القديس يوستينوس الشهيد (١٠٠-١٦٥ م) في دفاعه الأوَّل الذي كتبه ما بين سنة ١٤٠-١٥٠ م عن المسيحيين الذين صار لهم آئذ سنون أو سبعون سنة، منذ أن تتلمذوا للمسيح في طفولتهم *εμαθητεύθησαν* فيقول: [وكتيرون من الرِّجال والنِّساء الذين اعتمدوا في المسيح منذ الطُّفولة، ظلُّوا أنقياء بعد عمر سنين أو سبعين سنة. وأنا أعتزُّ أني أوضح هذا الأمر لكلِّ جنس البشر]<sup>(١٢)</sup>.

وهذا ما يؤكِّد لنا أنَّ كثيرين فيما بين سنة ٧٠-٩٠ للميلاد، كانوا يُعمدون منذ الطُّفولة، وهو زمن ملاصق لعصر الآباء الرُّسل أنفسهم<sup>(١٣)</sup>. وهو أيضاً ما يذكرنا بقول القديس بوليكاربوس الشهيد (٦٩-١٥٥ م) قبيل استشهاده أنَّه عبدٌ للمسيح منذ ٨٦ سنة<sup>(١٤)</sup>.

وهو نفسه الذي قال في واحدة من رسائله (رسالة ٥٩):  
[المعمودية هي للجميع، وخصوصاً للأطفال الصِّغار].

ويقطع القديس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠ م) أبو التقليد الكنسي في ذلك الأمر بقوله:  
[أتى يسوع ليخلص الجميع، أي الذين وُلدوا به ثانية، سواء كانوا أطفالاً أو شبَّاناً أو شيوخاً] (ضدَّ الهرطقة ٩: ٢٢: ٢).

ولدى الكنيسة القبطية شهادات كثيرة قديمة، تؤكِّد وجود معمودية الأطفال في هذه العصور المبكرة في مصر<sup>(١٥)</sup>.

<sup>٢</sup> أعمال ١٠: ٤٨

<sup>٣</sup> أعمال ١٥: ١٦

<sup>٤</sup> أعمال ١٦: ٣٣

<sup>٥</sup> أعمال ١٨: ٨

<sup>٦</sup> ١ كورنثوس ١: ١٦

<sup>٧</sup> *Apol.*, 1, 15.

<sup>٨</sup> *Studia Liturgica*, vol. 1, p. 39.

<sup>٩</sup> *Mart. Polyc.*, 19.

<sup>١٠</sup> *DACL*, t. 2, p. 258.

فيقول العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) الذي وُلد من أبوين مسيحيين عن أجداد مسيحيين، في تفسيره للرّسالة إلى أهل رومية:

[استلمت الكنيسة من الرُّسُل، تقليد منح المعمودية أيضاً للأطفال]<sup>(١١)</sup>.

وفي عظته الثامنة على سفر اللاويين، يشير إلى معمودية الأطفال كعادة مستقرّة في زمانه، استلمتها الكنيسة من الرُّسُل القديسين<sup>(١٢)</sup>.

ويقول العلامة اللاهوتي ديدموس الصّريير (٣١٣-٣٩٨م) مدير مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، يقول في معرض حديثه عن الثالوث:

[جعلت المعمودية الجميع إخوة، دون تمييز بين من هم صغار بالميلاد، أو كبار في السن]<sup>(١٣)</sup>.

ويقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩-٣٨٩م):

[ألك طفل؟ فلا يسوده الشرّ حيناً، بل ليتقدّس وهو رضيع، ويكرّس للروح منذ نعومة أظفاره. أيتها الأم إنك ترهبين الختم لضعف الطبيعة، ذلك لأنك ضعيفة النفس وقليلة الإيمان. لكن حنة قبل أن تلد صموئيل، وهبته للرّب. وحال ولادته، كرّسته ونشأته بحلة كهنوتية، ولم تخف من الضعف البشري، بل آمنت بالله].

وهكذا يحتفظ لنا التقليد منذ القرن الثالث الميلادي، بأن الأطفال الذين يولدون من أبوين مسيحيين، كانوا يقبلون المعمودية<sup>(١٤)</sup>.

ويشهد القديس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) بالقول:

[إن الكنيسة تتمسك دائماً بتعميد الأطفال، متسلّمة بإياه من إيمان السلف، ولم تنزل حافظه له إلى الآن، وسوف تحفظه إلى الانقضاء أيضاً] (خطاب ١٧٦).

وهذه الشّهادات الكثيرة نراها أيضاً في المراسيم الرسولية (منتصف القرن الرابع)، وعند القديس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م)، والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م)، وفي المؤلفات المنسوبة إلى ديونيسيوس الأريوباغي (القرن الخامس)، وكثيرون غيرهم<sup>(١٥)</sup>.

ومنذ منتصف القرن الخامس الميلادي، شاعت معمودية الأطفال وطغت ممارستها واستعمالها في الكنيسة الجامعة<sup>(١٦)</sup>.

أمّا العلامة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) فكان ضدّ معمودية الأطفال، إذ حرّض على تأجيل معموديتهم، حتى يمكنهم التّعريف على المسيح<sup>(١٧)</sup>، على الرّغم ممّا ذكره الإنجيل المقدّس «دعوا الأولاد يأتون إلىّ ولا تمنعوهم، لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السموات» (متى ١٩: ١٤). وكذلك تأجيل معمودية البالغين غير الناضجين روحياً، لأنّه كان يُعلّم بصعوبة أو استحالة غفران الخطايا التي تُرتكب بعد المعمودية. وهذا هو نفس التّعليم الذي علّم به «كتاب عهد الرّب» (القرن الخامس)، والذي حظي في الشّرق بانتشار واهتمام بالعين، إذ قد أثر هذا التّعليم تأثيراً سيئاً العواقب، لأنّه دفع كثيرين إلى تأجيل معموديتهم إلى قُرب

<sup>11</sup> *Studia Liturgica*, vol. 1, p. 38 - cf. *PG* xiv, col. 1047.

<sup>12</sup> *Hom. in Lev.*, viii, 4.

<sup>13</sup> *PG* xxxix, col. 710.

<sup>14</sup> *ODCC*, 2<sup>nd</sup> edition, p. 701.

<sup>15</sup> جراسيموس مسرّة، الأنوار في الأسرار، بدون تاريخ، ص ٤٩

<sup>16</sup> Burmester, O.H.E. Khs, *The Canons of Cyril III Ibn Laklak 75th Patriarch of Alexandria*, dans *Bulletin de la Société d'Archéologie Copte (BSAC)*, t. 12, 1947, p. 27.

<sup>17</sup> *De bapt.*, 8.

ساعة احتضارهم، كما فعل الإمبراطور قسطنطين على سبيل المثال.

وابتداءً من القرن الخامس تقريباً، وحينما أصبحت معمودية الأطفال من الأمور الشائعة العادية والغالبة في ممارسة السر، تقهقر طقس قبول الموعوظين وإعدادهم، وحُذفت الوصايا والتعاليم التي كانت تُعطى لطالب المعمودية البالغ السن. أمّا طقوس جحد الشيطان والاعتراف بالمسيح والمسح بالزيت، فقد صارت طقوساً مختصرة، يُستهل بها خدمة سر المعمودية<sup>(١٨)</sup>.

وقد تثبتت في الكنيسة الأرمنيّة ومنذ القرن الثامن الميلادي، عادة تعميد الأطفال في اليوم الثامن بعد ولادتهم، وذلك بواسطة الكاثوليكوس يوحنا أسقف أودسون Jean d'Odsun. ولقد كان سبب تأخير ظهور معمودية الأطفال في الكنيسة الأرمنيّة، هو وجود مذهب البولسيين الذي ظهر وانتشر في أرمينيا<sup>(١٩)</sup>.

واليوم صارت الكتب الطقسية الخاصة بالعماد في كافة الكنائس الشرقيّة، ومعها الكنيسة القبطيّة، تخدم معمودية الصغار فقط لا الكبار.

أمّا الصلاة التي يقول فيها الكاهن: ”أيها السيّد الرب يسوع المسيح ... طهّر هؤلاء الأطفال الذين جاءوا ليكونوا موعوظين ...“، فيجب أن تُفهم على سبيل المجاز، لأنّه بعد سطور قليلة تالية لهذه الصلاة نقرأ: ”امنحهم غفران خطاياهم، وأعطيهم نعمتك أن يُشفوا من الخطيئة المميّنة“. ممّا يتّضح معه أنّ نصّ هذه الصلاة كان في الأصل لموعوظين بالغين، ثمّ عُدّل ليناسب الأطفال. وفي كلّ الصلوات اللاحقة تحت عنوان: ”صلاة على الموعوظين“، يتّضح أنّها من أجل راشدين، وليس لأجل أطفال<sup>(٢٠)</sup>.

ولقد فرضت الكنيسة تأديباً على الوالدين إذا أجلا عماد طفلهما، فمات الطفل دون عماد، سواء لإهمال منهما، أو بسبب نذر العماد في مكان معيّن، أو على يد كاهن معيّن. والتأديب الكنسي، قانونه الصوم والحرمات من شركة الأسرار المقدّسة لمدة سنة كاملة.

وتذكر قوانين البابا كيرلس بن لقلق (١٢٣٥-١٢٤٣م): ”من أمكنه العماد اليوم، فلا يؤخّره إلى غد بسبب غيبة والد أو صديق أو ملبوس أو كاهن معظّم أو عمل فرح. فمن أخّره إلاّ لضرورة قاطعة، فإنّ الله سيدينه“<sup>(٢١)</sup>. وفي قوانينه أيضاً: ”لا تُغيّر العوائد المستقرّة في البيع القبطيّة، كالتنان قبل التعميد، ما لم تقطعه ضرورة ... الخ“<sup>(٢٢)</sup>.

ونقرأ في القانون الرابع والعشرين من قوانين البابا حريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) الـ ٦٦ من بطاركة الكنيسة القبطيّة ما يلي: ”إذا عمّد (القس) طفلاً فليصم (الطفل) إلى أن يتقرّب“<sup>(٢٣)</sup>. وإن شرب لبن أمّه أو غيرها من المؤمنات فلا يجوز له قربان. ولا تجوز معمودية بلا قربان“.

ويجمع ابن كبر (١٣٢٤م+) في القرن الرابع عشر بعضاً من القوانين الكنسيّة المختصّة بمعمودية الأطفال والسابقة لزمانه، فيقول: ”إذا عمّد صغير، فلا يُسقى لبن أمّه ولا غيرها، إلاّ بعد تناول القربان. فإنّه إن شرب لبن أمّه امتنع من القربان، ولا يجب معمديته بلا قربان، فتحرزوا من ذلك“.

<sup>18</sup> Burmester, O.H.E. Khs, *The Baptismal Rite of the Coptic Church*, dans *Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BSAC)*, t. 11, 1945, p. 61.

<sup>19</sup> *DACL*, t. 2, p. 295.

<sup>20</sup> *BSAC.*, t. 11, p. 62.

<sup>21</sup> *BSAC.*, t. 12, p. 89.

<sup>22</sup> *BSAC.*, t. 12, p. 86.

<sup>23</sup> ورد في مخطوط الفاتيكان (١٥٠ عربي) إضافة مهمّة وهي: ”إن كان يقدر“.

وإذا كان المعمد طفلاً مرضعاً، فيُقدّم قُدّاس السّرّائر عندما يُبدأ بخدمة المعمودية، لكي يكون فراغهما معاً، فيُعمّد ويُقرّب قبل رضاعته من لبن أمّه. ويجب أن تحتَرزوا في ختان أولادكم، ولا تعمّدوا إلاّ من قد خُتن، فإنّه لا ختان بعد المعمودية»<sup>(٢٤)</sup>.

وفي الكنيسة الشّرقيّة، يتبع المعمودية مباشرة، منح سرّ الميرون المقدّس، ثمّ سرّ الإفخارستيا - كما كان الطّقس القديم منذ عصر الآباء الرُّسل - حتى بعد أن تعمّت معمودية الأطفال.

وأما في الغرب المسيحي، فقد أُرجم منح هذين السّرّين الأخيرين - أي الميرون والإفخارستيا - حتى سن الإدراك، باستثناء حالات الخطر، وذلك منذ زمن القديس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م). إذ كان القديس أغسطينوس يعتقد أن الأطفال لا ينبغي أن يقتربوا إلى المائدة المقدّسة، لأنّهم لا يقدرّون بعد على اختبار أنفسهم (١ كورنثوس ١١: ٢٨)<sup>(٢٥)</sup>.

ويُتضح من هذا التّعليم، التّضاد بين المنع من سرّ الإفخارستيا لعدم القدرة على اختبار النّفس، ومنح سرّ المعمودية في نفس الحالة من عدم القدرة على اختبار النّفس أيضاً. لأنّ اختبار النّفس قبل التّقدّم للأسرار، هو للرّاشدين الذين صاروا يميّزون بين الخير والشرّ، ليس من جهة أهليّة تلك النّفس للتّقدّم للأسرار، بل من جهة منتهى احتياجه إليها، والفرق شاسع بين الحالتين. أمّا الأطفال الأبرياء، فالرّب نفسه هو الذي أمر بقوله: «دعوا الأولاد» τὰ παῖδια<sup>(٢٦)</sup> يأتون إليّ ولا تمنعهم لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السّموات» (متى ١٩: ١٤)، فإن لم يأتوا إليه في سرّ جسده ودمه الأقدسين على المذبح، فكيف يأتون إليه؟ والقديس أغسطينوس نفسه هو الذي قال:

[إنّنا نؤمن ونصدّق بتقوى وصواب أنّ إيمان الوالدين والأشباين يفيد الأطفال، وعلى هذا الإيمان يعتمدون] (رسالة ١٩٣: ٣).

وفي سنة ١٩٦٩م وضعت الكنيسة الكاثوليكيّة بعض القيود على معمودية الأطفال إذا كان والدا الطّفل مسيحيين بالاسم فقط، وأنّ تربية الطّفل في الحياة الكنسيّة معرّضة للتّعويق، فترجأ معمودية الطّفل في هذه الحالة أو تُرفض، لحين تلقين الوالدين التّعليم الكنسي الكاثوليكي. وجديرٌ بالذّكر أنّ هذه التّعليمات الحديثة، قد لاقت مقاومة من بعض اللاهوتيين الغربيين أنفسهم<sup>(٢٧)</sup>.

أمّا الممعدائين والبروتستنت عموماً، فلا يعترفون بمعمودية الأطفال، قائلين: 'إنّها بلا سند من الكتاب المقدّس، وهي والحالة هذه لا تكون سوى مراسيم أو فرض كنسي، ولكن ليست سرّاً كنسياً، لذلك فهي لا تستطيع أن تنقل هبة أو نعمة روحيةً لمتقبّل غير مدرك لها'. ولأنّ الكنيسة البروتستنتيّة لا تعترف بالتّقليد المقدّس إلى جانب الكتاب المقدّس، فليست هناك أرضيّة مشتركة للحوار في هذا الشّأن.

<sup>٢٤</sup> مخطوط رقم (عربي ٢٠٣) بالمتكبة الأهليّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، الباب ١٥ ويظل قانون البابا غبريال الثالث ابن لقلق (١٢٣٥-١٢٤٣م) في ذلك الأمر هو الأكثر اعتدالاً، حيث يُبيح الختان بعد المعمودية إن كانت هناك ضرورة لذلك. لأنّ المسيح عندما خُتن ليكمل التّاموس، أعتقنا نحن من ناموس الختان، كتعليم القديس كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م).

<sup>٢٥</sup> *Studia Liturgica*, vol. 1, p. 44.

<sup>٢٦</sup> الكلمة اليونانيّة παιδίον تعني: طفل صغير

<sup>٢٧</sup> *ODCC*, 2<sup>nd</sup> edition, p. 702.